

# تأثير الأقاليم الإسلامية في الشعر والدين

للدكتور شوقي ضيف

— ١ —

من المعروف أن العرب كانوا كلما فتحوا أمة سياسياً وديناً فتحوها أيضاً لغوياً وأديباً ، فالدولة العربية كلها استخدمت لغة الفاتحين في التعبير عن عقولها وقلوبها ، لم تتخلف عن ذلك أمة ، إذ كان نهر اللغة العربية من العنف والقوة بحيث يرفع كل الحواجز والعوائق الجنسية والدينية التي صادفها في كل الأقاليم الإسلامية .

وهذا الوضع للعرب ولغتهم لا يزال يأخذ بألباب الغربيين ، فهذه أمهم وحكوماتهم تحاول جاهدة أن تحدث مثل هذا الانقلاب في بعض الشعوب التي تستعمرها ، فيقصر الانقلاب وتقصر المحاولة ، وتبوء ، وخاصة في الشعوب العربية ، بالفشل الذريع . وكلنا نعرف محاولات فرنسا في الجزائر ، ونقلها هناك لكثير من سكانها واستخدامها لوسائل التربية والتعليم الحديثة . ومع ذلك كله لم تصب شيئاً من النجاح الذي أصابه العرب في فتوحهم .

ولا ريب في أن ذلك النجاح يعد معجزة القرآن الكريم الثانية بجانب معجزته الأولى ، إذ جمع أولا العرب في جزيرتهم على دين سماوي واحد ، ثم جمع ثانياً الشعوب المفتوحة على لسانه العربي المبين . وقد يرجع ذلك إلى أن هذه الشعوب لم يكن لها أدب رائع على نحو ما كان القرآن والشعر العربي ، وقد يرجع إلى أن البلاد المفتوحة اعتنقت الدين الإسلامي .

وسواء أكان السبب هذا أم ذاك ، فما لا جدال فيه أننا لا نمضي في القرن الثاني للهجرة حتى تصبح العربية لسان أهل إيران والموصل والعراق والشام ومصر والمغرب ، ويتكلمها ساميون وحاميون وآريون ، بل يتخذونها أدواتهم لتسجيل حياتهم الفكرية والوجدانية . واندماج فيها كل التراث الفارسي والهندي واليوناني

الذى لقيته في طريقها بجميع خصائصه ، وتمثلته تمثلاً رائعاً بحيث أصبحت لغة الحضارة والمدنية في العصور الوسطى ، وبحيث كانت جامعة قرطبة في أسبانيا المنارة الإسلامية المتوهجة وسط ظلام أوربا المخيم على العقول والأذهان .

ونفض هذه الحضارة والمدنية العرب والموالي جميعاً ، وكان للأخيرين عمل واسع في نهضة الدراسات الدينية والعلمية . ونهضوا نفس النهضة بالأدب ، بحيث لم يعد فيه عربى ومولى ، فقد أصبحوا لا يقلون عن العرب ذلاقة لسان وفصاحة بيان ، بل أخذوا يتفوقون عليهم .

وقلما نسمع بكتاب مشهور أو شاعر ممتاز في القرن الثاني للهجرة إلا ويكون منهم ، فعبد الحميد وابن المقفع وسهل بن هرون ، كل هؤلاء الكتاب البارعين من الفرس ، وبشار وأبو نواس وأبان بن عبد الحميد وأبو العتاهية ومسلم وابن الرومي ، كل هؤلاء الشعراء المبدعين من الأجانب ، فيهم الفارسي والنبطي والرومي .

فالعربية لسان الجميع ، وهى لغة الحياة العقلية والوجدانية ، يتخذها سكان الدولة العربية أداة تعبيرهم في جميع شئونهم العلمية والأدبية . وكان للفرس في أول الأمر القدح المعلى في ذلك ، إذ أقبلوا على تعلمها بحماس منقطع النظير ، وتصادف أن العباسيين اتخذوا عاصمتهم في العراق بالقرب منهم ، واتخذوا منهم الوزراء والكتاب ، فانبعثوا من ورائهم محققون لأنفسهم أمجاداً في الأدب العربي . وتلا الفرس غيرهم من الأمم والشعوب الإسلامية ، فشاركوا في هذا الأدب بشعره ونثره ، وبذلك كان أدب الأقاليم الإسلامية كلها ، شرقت أو غربت ، وتقاربت أو تباعدت .

## — ٢ —

وكل شيء كان يؤكد أن تفرق هذه الأقاليم فيما بينها ، وأن يظهر تأثير بيئاتها في الأدب العربي بنوعيه من شعر ونثر ظهوراً بيناً ، بل ظهوراً من شأنه أن يوجد حواجز بين آداب الأقاليم المختلفة . فيختلف أدب كل إقليم ويتميز بما توجهه طبيعته الجغرافية ووراثاته الحنسية والثقافية والروحية .

غير أن من ينظر نظرة فاحصة في الأدب العربي وأمثلته التي نشأت له في الأقاليم المختلفة يجد هذه الأمثلة تلتقي وتشابه ، بل تكاد تتحد ، لسبب بسيط ، وهو أن أصحاب هذه الأقاليم لم يشعروا بانفصال في أنفسهم ، إذ حاولوا - جهدهم - أن يتصلوا بغيرهم ، وبالإطار العام لهذا الأدب الذي غزاهم وفتح عقولهم وقلوبهم لرواسبه المعنوية والتصويرية .

ونحن لا نستطيع أن نفهم هذه الظاهرة من التشابه الشديد بين آداب الأقاليم الإسلامية وشعرها خاصة إلا إذا اطلعنا على الطريقة التي كان يصطنعها الكاتب أو الشاعر كي يحسن فنه . وهي طريقة اصطلحت عليها كل البيئات ، وذلك أن من يريد أن يكون أديباً كاتباً عليه أن يقرأ نماذج الكتاب الأولين من أمثال عبد الحميد وابن المقفع والجاحظ وابن العميد ، حتى يعرف أساليبهم وخصائصهم ، ثم يحاكيهم محاكاة دقيقة . وكذلك الشأن في الشعر ، فمن أراد أن يكون أديباً شاعراً عليه أن يقرأ نماذج بشار وأبي تمام وأبي نواس والبحرئى والمتنبي وأضرابهم ، حتى يقف على أساليبهم ودقائق هذه الأساليب ، ثم يقلدها تقليداً يوشك أن يكون طبق الأصل .

وبذلك كان الشاعر يرتفع عن إقليمه ويتخلص منه جاداً ومن وراثاته وظروفه المختلفة ليحقق لنفسه نجاحاً في عالم الشعر العربي ، وحتى يثبت مهارته وأنه يجرى في نفس الدروب التي سلكها أسلافه . ومن هنا لم تُعْطَ فرصة حقيقية للأقاليم كي تؤثر في هذا الشعر التأثير المنشود الذي يقيم حدوداً وفواصل بين البيئات المتغايرة وما تنتج من شعر وفن .

وكأنما رُبط العالم العربي كله بأسلاك فنية واحدة ، فأى اهتزاز في منطقة تشعر به المناطق الأخرى ، وسرعان ما تتجاوب معها . ويخيل إلى الإنسان كأنما تعاهدت الأقاليم الإسلامية على أن يكون شعرها متشابهاً لا يتميز فيه إقليم من إقليم بشيء معين .

ونشعر شعوراً واضحاً أن الشعر العربي أصبح صناعة ، وهي صناعة تتداول بين الأقاليم الإسلامية على نحو ما تتداول صناعة الفقه أو على شاكلة ماتتداول صناعة النحو ، فهناك مثل وتقاليد لا يعدوها الشعراء إلا على نحو هؤلاء

الفقهاء والنحاة في مؤلفاتهم . فهذا مثلاً مذهب مالك يدرس في الحجاز إقليمه الأصلي ، ويدرس في مصر والمغرب والأندلس ، وتؤلف فيه عشرات الكتب ، وكل إقليم يقدم نشاطه ولكن لا تظن أن المذهب يختلف من إقليم إلى إقليم . قد تظهر بعض آراء جديدة ، ولكنها في فروع قليلة . وهذا نفسه نلاحظه في النحو وكثرة ما ألف فيه شرقاً وغرباً .

وكذلك الشأن في الشعر العربي ، فالعراقيون والفرس والحراسانيون والشاميون والمصريون والمغاربة والأندلسيون والصقليون ، كل هؤلاء يعملون فيه ، ولكن لا تظن أنه يتميز ويتفصل بين هذه الأقاليم أو بين هذه الأمم والشعوب فصورته العامة واحدة ، والتمايز أو التفصيل إنما هو في الفروع وفي بعض المعاني الحزبية .

وربما كان إقليم العراق أنشط الأقاليم وخاصة في القرون الثاني والثالث والرابع ، إذ أخرج نخبة ممتازة من الشعراء ، ولكن هذه النخبة لم تلبث أن حولت الشعر إلى نماذج أصبحت مثله العليا التي لا يصح للشعراء أن يخرجوا عليها أو يشذوا عنها .

فأبان شرقت أو غربت لا تجد إلا هذه المثل وإلا أبا نواس وبشاراً والبحرئى ومسلما وأبا العتاهية وأبا تمام وابن الرومي وابن المعتز والمتنبي . فهم يدرسون في كل إقليم ، وهم الأصول التي لا ينبغي للشعراء أن يتجاوزوها أو يعدلوا عنها .

ويشعر الإنسان أن قصائد هؤلاء الشعراء وأضرابهم أصبحت مقدسة ، فلا يصح الانحراف عن صورها يمينا ولا شمالا ، ولا يصح لبيئة أن تثور عليها ، وتستخرج من لدن ضميرها وروحها وحياتها الواقعة صورة جديدة .

ولذلك كنت تقرأ في كتاب مثل « جريدة القصر وجريدة العصر » للعماد الأصفهاني ، وهو موسوعة شعرية للأقاليم العربية المختلفة في القرن السادس للهجرة ، فلا تجد حين تقروءه صفات خاصة يمكن أن تضيفها إلى إقليم معين كأنما انعدمت الخصائص والصفات والفروق . ونعجب نحن الآن حين نجد هذا التشابه والتلاحم ، ولكن عجبنا يزول حين نعود إلى هذه الحقيقة ، وهي أن

هو"لاء الشعراء في مشارق العالم الإسلامي ومغاربه لم يشعروا بالفوارق الإقليمية ولا بالمشاعر الوطنية على نحو ما نشعر نحن حديثاً ، بل شعروا أنهم يعيشون في إقليم واحد وعالم واحد وبمشاعر وإحساسات وصور ذهنية وخيالية واحدة .

ومن أجل ذلك كان من الصعب أن يتبين شخص خصائص مميزة واضحة لإقليم إسلامي تفصله عن الأقاليم الأخرى ، لأن العالم العربي لم يتفصل في العلم ولا في الأدب شعره ونثره . تفاصل في السياسة ، وتكونت فيه وحدات سياسية ، ولكن هذه الوحدات لم تنته بالمسلمين إلى الشعور بأنهم يعيشون مستقلين بعضهم عن بعض في الشؤون الفكرية والفنية .

ولا ينتهي الإنسان من قراءة الجريدة أو قراءة أي كتاب يضم الأقاليم الإسلامية وشعرها مثل اليتيمة للثعالبي والمغرب لابن سعيد حتى يقف على هذا التشابه الفني لصور الشعر العربي ، وحتى ييأس أن يكون هناك خلاف حقيقي بين إقليم وإقليم .

ولا يكاد يظفر بميزة خاصة لبيئة حتى يجدها شائعة في البيئات الأخرى ، فمن المشهور مثلاً أن شعر الطبيعة نما في الأندلس حتى غدا ميزة لها ، ولكن لا نقرأ هذا الشعر حتى نجد لا يختلف في شيء عن شعر المشاركة من أمثال ابن الرومي والصنوبري . وقل ذلك في الشعر الصوفي ، فهو منتشر في كل الأقاليم ، ولا فارق فيه بين إقليم وإقليم .

وقد نجد نوعاً من الابتكار كبديع أبي تمام ، ولكنك لا تلبث أن تجد نقاد العرب أنفسهم يردونه إلى مسلم بن الوليد ، بل إلى بشار وأبي نواس ، بل إن ابن المعتز يرده في كتابه « البديع » إلى الشعر الجاهلي والقرآن الكريم .

وتكثر مصر بسبب مزاجها الفكاه من التورية واللعب بالألفاظ ، فينتشر ذلك عنها ، وتشاركها فيه كل البيئات الإسلامية ، حتى الأندلس نراها تتجه هذه الوجهة عند ابن خاتمة معاصر لسان الدين بن الخطيب .

فليس في الشعر العربي موضوع يختص به إقليم ولا لون فني من ألوان البديع ينفرد به إقليم ، وإنما الذي فيه التقارب والتماثل ، حتى ليشبه مصنعاً كبيراً

يدخله عمال محترفون ، فيجدون قوالب مهيئة ، فيصبون فيها ما يسمى شعراً ، وهو شعر يتحد في أكثر صورته وأطرافه ، لأن من طبيعة القوالب المهيئة أن تخرج أعمالاً متشابهة إن لم تكن متحدة تمام الاتحاد .

وكل ذلك معناه أن عوائق قوية حالت بين الأقاليم الإسلامية وبين أن تؤثر في الشعر العربي تأثيرات عميقة ، وهي ترد على الأقل إلى هذا الظاهر ، وهو أن الشعراء اصطلمحوا فيما بينهم على صور فنية خاصة ، وساقوا شعرهم كله في هذه الصور ، لا يجيدون عنها ولا ينحرفون .

واقراً في كتاب الذخيرة الخاص بشعراء الأندلس لمؤلفه ابن بسام فستجد المؤلف يهتدى في التعليق على شعر كل شاعر بالتعرف على مثاله المشرقي الذي يقلده ، فهذه القصيدة صيغت على نمط قصيدة لأبي نواس ، وتلك نظمت على نمط قصيدة للبحرئى أو لأبي تمام أو ابن الرومى أو المتنبئى أو لأبي العلاء ..

والمعاني الجزئية للشعراء يتعقبها بنفس الطريقة ، فهذا المعنى مسروق من فلان أو فلان من العباسيين أو من سبقوهم ، وكأننا بازاء ساقية جحا وما قيل من أنها كانت تأخذ ماءها من البحر ثم تدفعه ثانية إلى البحر . وما البحر إلا الشعر العربى ، وما الساقية إلا الأقاليم التى دار شعرها على التقليد للنماذج السابقة . ويضيق التقليد ويتسع حسب اختلاف الشعراء فى أمزجتهم أو فى عقولهم ، ولكنهم على كل حال يعدون جميعاً مقلدين ، يتبعون النماذج التى تقدمتهم ، ويصوغون شعرهم عليها صياغة ، وكأنما جفت الينابيع التى يمكن أن تمدهم بضرب من الفردية يدفعهم إلى شىء من الاستقلال والانفصال .

— ٣ —

وربما كانت الأندلس أسبق الأقاليم إلى محاولة استلهام بيتها وابتكار صورة جديدة فى الشعر العربى على نحو ما هو ذائع مشهور عن الموشحات والأزجال . ولكن هذا نفسه ينبغى أن نحتاط فيه حين نقوله ، فان من يقرأ الموشحات مجدها تستمد فى مادتها ومعانها من الشعر العربى العام ، فالشاعر فيها يتغزل أو يمدح أو يهجو أو يصف الطبيعة أو يسوق خمرة بنفس الرواسب الفنية المألوفة لنا فى الشعر العربى .

وكأنما التجديد الحقيقي في الموشحات يقتصر على الوزن والصياغة الموسيقية فهي تتألف من مراكز وأغصان ، تهيء لأن يكون هناك مغن وجوقة ترد عليه ، وهي تجدد في الأوزان بما تزيد في التفعيلات أو بما تحذف ، ولكن هذا كله تجديد في الشكل تحت تأثير الغناء والموسيقى . أما الجوهر فلا يختلف في شيء عن جوهر القصيدة العربية من حيث الخواطر والمعاني والصور .

ونحن لانعدم أن نجد صورة طريفة أو معنى مبتكراً في موشحة من الموشحات كما هو الشأن في القصيدة الإقليمية ، فلم يقفل باب الاجتهاد على الوشاحين والشعراء ، ولكنه تحاذل وتضاءل ، ولم يفتتح إلا لبعض صور ومعان قليلة .

وهي لا تعد شيئاً من حيث التعبير عن البيئات ، بل إنها جهود فردية محدودة ، فالفنانون لا يزالون مشدودين إلى مثل الفن القديمة ، أو كما كانوا يقولون ، إلى عمود الشعر العربي وأصوله ونماذجه .

ومعنى ذلك أن الشعر العربي رغم ما ظهر فيه من الموشحات الأندلسية له روح واحدة تسيطر عليه ، لم يستطع خلاصاً منها ولا انفكاً عنها . وهذه الروح هي التي كانت تصل بين الشعراء في البقاع والأمصار المتباعدة ، بحيث إذا ظهر أي لون جديد أو اتجاه جديد لم تلبث الأقاليم الأخرى أن تجاربه أو تقلده ، وقد تبدد فيه الإقليم الأصلي كما حدث في الموشحات ، فقد ظهرت في الأندلس ، ولم يلبث ابن سناء الملك المصري أن وضع لها أصولها في كتابه « دار الطراز » ونظم موشحات لا تقل روعة عن موشحات نظرائه في الأندلس ، وتعاقب من بعده على التوشيح المصريون والشاميون والعراقيون يحسنون ويمجدون ويتقنون .

وكل ذلك يجعلنا نقول إن مادة النسيج في الشعر العربي كانت أقوى من أن تنزع عنها الأقاليم مقوماتها ومكوناتها . وقد يكون هذا راجعاً إلى شيء من المحافظة في اللغة العربية ، أو قل إنها تميل إلى المحافظة الشديدة ، فانطبعت الأقاليم الإسلامية في شعرها وفيها بهذا الطابع ، وأصبح من غير الممكن أن تنشأ اتجاهات ومذاهب جديدة تصيب الشعر بثورة عنيفة على نحو ما نعرف في المذاهب الغربية الحديثة .

على كل حال لم تخرج الموشحات عن عالم الشعر العربي المألوف للمشاركة إلا من حيث الوزن والصياغة ، وسرعان ما تناولتها الأقاليم الأخرى وحاولت أن تتفوق فيها على الأندلس ، وأهم الأسباب في أنها تمكنت من ذلك فعلا تملكها للمادة الأساسية التي تكونها ، ونقصد المعاني والحواطر وقوالب التشبيهات والاستعارات وكل هذه الرواسب التي تكون القصيدة العربية فهي نفسها التي نصادفها في الموشحة . ومن هنا أصبحت الموشحات صورة عامة من صور الشعر العربي لا صورة محلية خاصة ببيئة معينة . أنتجت الأندلس ولكن سرعان ما ساهمت فيها البيئات الأخرى وزاحت بيئتها الأصلية .

ونستطيع أن نلاحظ نفس الملاحظة في الأزجال ، ومعروف أنها لا تتألف من اللغة الفصيحة ، وإنما تتألف من اللغة العامية ، وقد اخترعها الأندلسيون على لسان ابن قزمان . وسرعان ما انتشرت في العالم الإسلامي كله ، حتى يقول ابن سعيد صاحب المغرب إنه سمع أزجال ابن قزمان « مروية ببغداد أكثر منها بجواضر المغرب » .

ولا ريب في أن الذي أتاح للأزجال الأندلسية الانتشار إلى أقصى الشرق إنما هو هذه المادة التي نشب إليها والتي كانت تتألف منها ، إذ كانت تنزع انتزاعاً من مادة الشعر العربي في المعاني والأخيلة . وبذلك أمكن أن تدور على الألسنة في الأقاليم الإسلامية الأخرى وأن يفهمها الناس ويتداولوها فيما بينهم . فحتى الأزجال لا تفصل في حملتها عن الشعر العربي ، بل تستمر فيها طوابعه بجانب الألفاظ العامية البلدية .

على أن استخدام كل إقليم لعاميته فيها جعلها أقرب إلى أن تمثل من الشعر الفصيح ، لأن الزجالين حاولوا أن يصوروا واقع حياتهم بأوسع مما حاول الشعراء إذ لم يكونوا مقيدين مثلهم بنماذج معينة يرتفعون في تقليدها عن أوساطهم وعن عصورهم وبيئاتهم .

وبذلك كانت الأزجال أقوى وأوضح من الشعر في تمثيل البيئات الإسلامية وما جرى فيها من حياة سياسية واجتماعية . وحتى مزاج الشعب نفسه وخصائصه نستطيع أن نلمحها في الأزجال بأجلى وأحد مما نلمحها في الشعر الفصيح .

ويتضح ذلك بالرجوع إلى الأزجال في إقليم مثل مصر ، فمن الظواهر التي تميز هذا الإقليم ظاهرة الفكاهة ، ولها صورة معروفة في الشعر الفصيح هي التورية ، ولكنها صورة محدودة جداً ، وقد شاركت فيها الأقاليم الإسلامية بحكم اندماجها بل فنائها بعضها في بعض .

وإذا تركنا الشعر المصري الفصيح الذي لا يكشف لنا كشافاً واضحاً هذه الظاهرة إلى الأزجال وجدناها مجسمة عند زجالين كثيرين . ويكفي أن نرجع إلى ديوان « نزهة النفوس ومضحك العبوس » لابن سودون الذي كان يعيش في عصر المماليك لئرى كل شيء في مصر يتحول عنده إلى هزل وفكاهة ، وكأنه أراجوز ، تشد أسلاكه ، فيتحرك حركات مضحكة ، والديوان كله ضحك ودعابة .

وكان في الجيل الماضي الشيخ محمد النجار صاحب مجلة الأرغول زجالاً من الطراز الأول وتعرض في أزجاله للحياة المصرية المعاصرة له وللمرأة المتمدينة حينئذ والسفور ولكل ما وقع تحت عينه وأجراه فكاهة ومزاحاً .

ولعل في هذا ما يدل على أن ما استعصى على الأقاليم من التأثير العميق في الشعر العربي وصلت إليه عن طريق آخر هو الأزجال ، وما يزال الفرق بعيداً في عصرنا بين أن نقرأ للزجالين والشعراء ، فداًئماً يتصل الأولون بالحياة الواقعية من سياسة واجتماع اتصالاً مباشراً بخلاف أصحاب الشعر الفصيح ، كأن هذا الشعر لا يزال يستعصى على تمثيل بيئاته وأقاليمه إلا ما جاءه من إمدادات غريبة ، وتوجهات لا هي إقليمية ولا شرقية .

**سوق صيف**